العناصر اللازمة لنجاح جامعة ناشئة

ملخص المحاضرة التي ألقاها جناب الدكتور س . برودتسكى الاستاذ بجامعة ليدز بانجلترا فى الاجتماع الذى أعدته نقابة المعلمين بمدرسة المعلمين العليا يوم الثلاثاء ١٤ ابريل سنة ١٩٢٥

أيها السادة ،

دعاني تلاميذى من بينكم لأن أتحدث لكم عن الجامعات الناشئة . وقد تقبلت دعوتهم بارتياح لا لأن الموضوع من الموضوعات التى ازعم اني حجة فيها بحيث استطيع التكلم عنه بلهجة الجزم واليقين ولكن لأن لى به خبرة عملية واسعة . لقد ارتبطت بعالم الجامعات ارتباطا وثيقا في كمبردج التى كانت مهد دراستى الاولى وفى لندره التى نلت منها درجة كطالب خارجى فعرفت بذلك كثيراً من انظمتها وخصائصها وفي جامعة ليبزج التى نلت منها درجة الدكتوراه . ثم كنت محاضرا واستاذاً فى جامعتى برستول وليدز . وفي جامعة ادنبرا التى توليت فيها تدريس الرياضة بضعة شهور مدة مرض استاذها وأخيراً كنت من المهتمين بالجامعة العبرية العاملين على ايجادها . فانتم ترون من هذا كله انى قد اتيح لى تعرف شؤون الجامعات فى ظروف متعددة

ومن محاسن الاتفاق أن تبدأ جامعة القاهرة وجامعة اورشليم الظهور في عالم الوجود فى وقت واحد . فاما جامعة اورشليم فقد بدأت بعض كلياتها العمل فعلا والهمة مبذولة في ايجاد كليات اخرى بها وأما

جامعة القاهرة فتوشك أن تفتح أبوابها وتبدأ عملها . ويحق لنا ان نتطلع ونحن مملوءون بالامل الكبير الى المستقبل الذى تصبح فيه هاتان الجامعتان مركز الحياة العلمية فى الشرق الادنى

وأود أن اشير من البداية الى أني لست أقصد التكلم في امور سياسية فلست ممن يهتمون اهتماما خاصا بسياسة القاهرة — على الاقل هذه الليلة — وعداهذا فأنى فى هذه الامور احتفظ دائما بآرائى على اني اجدنى مضطرا الى التكلم فى أمور قد تبدو سياسية وان لم تكن كذلك الا في ظاهرها فقط . انى ممن يقولون بضرورة ابعاد كل ماله مساس بالسياسة عن جو الجامعات

ولما كانت الظروف السائدة فى بلادكم لا تختلف فيما أرى اختلافا كبيرا عن ظروف فلسطين فستجدونني أشير كثيراً الى جامعة أورشليم عند التمثيل والايضاح

أول ما يقال عن الجامعة الحديثة تحديد وظيفتها والغرض الذى يراد منها . ولقد كان اول ما فكرنا فيه بعد أن وضعنا قدمنا فى فلسطين أن نبدأ بها جامعة . لم هذا ؟ لأننا نعتبر الجامعة ركنا اساسيا في بناء الحياة القومية فليست الجامعة ترفا تسعى له الامم مباهاة ومجاراة لغيرها وانما هى ضرورة قصوى لا غنى عنها

يجب ألا ننظر للجامعة بالعين التى يراها الرجل العملى . الرجل العملى يستفيد عادة من أعمال غيره ومجهوداته ، ولكنه هو قل أن يأتى بجديد . هو يرى ما تحت انفه من الاشياء ، ولكنه يخفق فى رؤية الامور البعيدة . وايجاد جامعة ليس مما يقع فى مدى بصر الرجال العمليين

أنه يشبه أن يكون حلماً لا يدرك طبيعته الا رجال النظر والخيال البعيد . هؤلاء الرجال الخياليون هم الذين يحتاج اليهم فى ايجاد الجامعة . هؤلاء الخياليون الذين يتخطى بصرهم ما حولهم من الاشياء ويمتد نحو غايات سامية بعيدة يحاولون تحقيقها

وقبل أن نخطو خطوة اخرى فى الموضوع يحسن بنا أن نتساءل : ما الوظيفة التى يراد من جامعة القاهرة أداؤها ؟ وليس هذا بالسؤال الذى تسهل الاجابة عليه فأنه سيضعنا وجها لوجه امام الرجل العملى الذى لا يرى الجامعة الا آلة تدار فتخرج أكثر عدد ممكن من الطلاب ، ويقصر فهمه عند تصور فكرة الجامعة منفصلة عن الطلبة . وهنا أعود بكم الى جامعة فلسطين فقد كان أمامنا فيها مثل هذه الحال . كان أكبر الاعتراضات التى اقيمت فى وجه مشروع الجامعة انها لن تجد كفايتها من الطلبة وكيف يمكن أن تقدم الجامعة بلا طلبة ؟ هؤلاء الرجال العمليون الذين أثاروا الاعتراض يرون الجامعة معهداً لتخريج شبان يحملون الدبلومات سيتقاسمون فيما بينهم مناصب الحكم . وظاهر أن هذا فهم غير صحيح لمهمة الجامعة . يجب أن تخلق الجامعة أولا وترتب شؤونها ويجعل لها مكانة رفيعة ، والطلاب بعد هذا آتون اليها بلا نزاع . وزيادة فى الايضاح نقول ان هنالك مهمتين اساسيتين للجامعة الاولى تربية الطلبة فى شعب العلم المختلفة . والثانية وليست دون الاولى ان لم تكن ترجحها ترقية العلم والعمل على زيادة الثروة العقلية الانسانية

تسعى الجامعة لترقية العلم أولا ثم يأتى الطلبة بعد ذلك . يجب أن تكون الجامعة مركزاً علميا يحوي طائفة من ذوى المقدرة الفائقة يواصلون

المباحث العلمية ويخلقون حياة عقلية جديدة

لقد أتى زمن كانت الجامعات تؤسس فيه لاغراض عملية . ان جامعة ليدز نفسها انشئت لاسباب اقتصادية محلية . ولكن هذا كان فاسداً في أساسه وقد أدرك الناس الخطأ في هذا وأصبح الرأى المسلم به الآن ولاسيما بعد الحرب الكبرى أن الغرض الاساسى من الجامعات هو تنمية العلوم والمعارف وترقية المثل العليا الدراسية لذات العلم

ومن الضروري لنجاح الجامعات أن تنشأ كلياتها المختلفة أولا فيشتغل فى كل منها رجال من كبار العلماء في البحث في الميادين الخاصة بهم فاذا اتفق بعد هذا أن أتى طلبة فليس بمعجزهم أن يوفروا من وقتهم ساعة أو أكثر في اليوم لمحاضرتهم وتعليمهم

فأنتم ترون ان الامر ليس تعيين محاضرين بل ايجاد رجال بحث يتخذون الجامعة مركزاً لمباحثهم

ان هناك خطرا عظيما يتهدد الجامعات الناشئة كجامعة القاهرة واورشليم حيث المستوى الفكري لا يزال دون ما ينبغي من السمو وهو أن يحسب الناس الجامعات تلك المدارس الثانوية المفخمة التى تدعى بالمدارس العالية والتى تعد مدرسين ومهندسين ومن الى هؤلاء . وهذا لعمري خطأ كبير ولقد وقع الهنود فى نفس الخطأ ولذلك يقتضى الامر الحيطة والانتباه . يجب أن يفهم جليا أن البحث هو غاية الغايات فى الجامعة

ولست أدري أى قول يكفى لبيان ما اريد توكيده وتثبيته وهو أن الجامعة يجب ان تقوم على رجال من ذوى الرؤوس الكبيرة والمقدرة

العلمية العامة . دعوني أروي لكم قصة سمعتها من صديق لي وهو استاذ رياضة :

جاءه رجل يوما واتفق معه على ان يعطيه درسا خاصا مقابل ٥ شلنات في الساعة وقد لاحظ أنه في كل مرة يأتيه بعدد معين من المسائل يسأله حلها فدهش الاستاذ لتكرر ذلك وأراد ان يدرك كنه الأمر فسأل تلميذه عنه وهذا صدقه الحديث وهو انه هو يعطي درساً خاصا مقابل ١٠ شلنات في الساعة ولما كان لا يستطيع حل تلك المسائل استعان به على حلها وكان له فرق الاجرين

ومغزى الحكاية ان الانسان لا يستطيع ان يكون مدرسا للرياضة بأن يسبق تلاميذه بدرس واحد ولكن مثل هذا الرجل لا يمكن بحال ان يكون استاذاً للرياضة. نحن نريد رجلا يكون حجة في الرياضة ويستطيع ان يتكلم عن ثقة وسعة علم في فرع من فروعها على الاقل

هناك خطر آخر يتعلق بانتخاب الاساتذة . لقد يكون الرجل من اعلام الرياضة ولكنه ليس وطنيا فهل تعين مثل هذا استاذا للرياضة او تؤثر عليه رجلا متوسط المقدرة فيها ولكنه شديد الغيرة الوطنية . والجواب عينوا الرياضي النافع فالجامعة اوجدت لتقدم العلوم الرياضية لا المبادىء الوطنية

ان من الامور الجسيمة الخطر ان تكون ثمة صلة بين اختيار رجل لعمل ما وبين آرائه السياسية او جنسيته

ومن دواعي الاسف الشديد انه قد وقع في هذا الخطأ كثير من الامم. خذوا مثلا ارلندا ، احتاجت احدى جامعاتها لاستاذ للرياضة فتقدم

لها ثلاثة أحدهم قسيس كاثوليكي والآخر يتبع كنيسة يوركشير الانجليزية والثالث يتبع الكنيسة الاسكوتلانديه . فعين الاول لمذهبه الديني دون نظر للمزايا العلمية . وهذان الآخران اللذان رُفضا يشغلان الآن مركزين ساميين . وأحدهما عضو في الجمعية الملوكية والثاني أستاذ للرياضة بجامعة ليدز اما الذي عين فنكرة من النكرات لا يسمع باسمه في عالم الرياضة . وهذا يدلكم على أن شؤون الجامعة تفسد اذا روعي فيها اعتبارات غير الاعتبارات العلمية الخاصة .

وبهذه المناسبة يجب أن أصارحكم أني كنت شديد الارتياح لما علمته من أن الحكومة المصرية اعتزمت أن تكل رياسة الكليات لاجانب لا لاني أنحاز لهؤلاء واجحد حق المصريين في تولي شئونهم . ولكن للمبدأ الشريف والفكرة البعيدة التي بني عليها هذا القرار نخبرتكم بأمور الجامعات محدودة ولا تزالون مفتقرين الى عضد الاجانب في هذا الباب ويكون فساداً في الرأي أن تعينوا المصريين لا لشيء سوى أنهم مصريون

انكم حين تبدءون بأساتذة أوربيين من الطبقة الاولى من العلماء تستطيعون في عشر سنوات أن تجدوا نتاجا مصريا يغني عنهم ويسد مسدهم .

أما اذا بدأتم بمصريين من الطبقة الثانية هبطتم بمستوى الجامعة ولم تجدوا لها من نتاج

وهنا يسوقني الحديث للكلام عن التقاليد وفعلها العجيب في الجامعات هناك جامعات يمتد أصلها بعيداً في حجب الماضي كجامعتي كمفورد

وكمبردج . هذه الجامعات امتازت بتقاليد اجيال طوال وهذه التقاليد التاريخية كان لها شأن عظيم في تقدمها وكان لها الفضل فى شهرتها التى ملأت الآفاق . أي انجليزى يسمع ذكر اكسفورد وكمبردج دون أن يشعر بالاجلال والاكبار والفخار

لما التحقت بكمبردج دلنى بعضهم على طريق حجرى كان السير اسحاق نيوتن معتاداً السير فيه فاحسست بدافع داخلى يدفعنى أذا اكثر السير في هذا الطريق . وكنت اتمثل كثيرا هذا النابغة العظيم يحل مسائل الكون فيخفق قلبى الصغير وتغمره قدسيه تملؤه خشوعا واجلالا

وانما كانت شهرة جامعة ليبزج لأنها كان منها الاستاذ برنز الفلكى الذائع الصيت . وهذه الشهرة هى التى جذبت الكثيرين اليها من اطراف الكون ليتصلوا بهذا العقل الممتاز ويستمدوا من قربه الألهام العلمى ، بل لعل هذا أقوى ما حملنى على الالتحاق بها

فاذا أردنا الموازنة بين جامعة حديثة وجامعة قامت من الف سنة كان معنى هذا أن نوازن بين جامعة لبثت تبنى لها تاريخا وتقاليد عشرة اجيال وجامعة ليس لها من تراث قديم

وليس لجامعتكم البادئة من تراث تاريخى نعم انكم كنتم في الماضى البعيد اساتذة العالم وكانت لكم نهضة علمية عظيمة ولكن حلقة الاتصال بينكم وبين هذا الماضى قد انقطعت وطمست آثار الماضى الجليله وواجبكم الساعة أن تفكروا كيف تبنون لكم تقاليد وبأى مقياس تقيسون عظمة الجامعة

هل ترون عظمتها في احجارها وابهائها وأعمدتها واتساع أروقتها وفخامة مماشيها ؟ كلا ان عظمة الجامعة تقوم على عظمة مدرسيها وسمة مدارکهم الفکرية .

وفي هذا المقام احذركم أشد تحذير أن تتورطوا في جمع المال لاقامة مبان فخمة قبل احضار اساتذتها

من المدهش حقا ان يغفل الناس عن هذه النقطة العظيمة الاهمية. انا نقرأ في الصحف عن بعض المتبرعين الذين يهبون الجامعات مبالغ عظيمة لاقامة مبانيها وينصون على ألا يصرف منها للاساتذة شيء

مثل هذا الامر يكثر وقوعه . ولقد حدث من مدة أن احدى الجامعات أقامت بناء فخما لمكتبتها ولم تدخر وسعها في تجميلها . ولكنهم نسوا أن يزودوها بالكتب القيمة . فكان أولو الامر فيها يباهون بها ويفاخرون بجمالها فزارها استاذ المانى ومر معهم بجوانبها وقال لهم حسن انها حقا مكتبة جميلة ولكن أين الكتب ؟ »

والمسألة التى تعترض الباحث هى كيف تقيم مملكة صغيرة محدودة الموارد كمصر جامعة ؟ والجواب على هذا تجدونه في حال جامعة ليدز فانها لما بدأت منذ ٥٠ سنة لم يكن لديها كفايتها من المال فلم تقم بناء

عني أصحاب الشأن فيها أولا بايجاد أساتذة من ذوي المقدرة الممتازة أما التدريس فكان فى كثير من الاوقات يجرى في أكواخ ، وانى شخصيا كان يتفق لى كثيرا أن احاضر والمطر يتساقط فوق رأسي من سقف غرفة الرياضة

ان الاستاذ براج من مشهوري العلماء في العالم قد أجرى اكثر

مباحثه في كوخ خشبي في الجامعة نفسها

ولكن تعالوا الآن وانظروا جامعه ليدز وكلياتها المتعددة ومبانيها الفخمة لتروا كيف يمكن ايجاد جامعة عظيمة من أكواخ متى وفق ذوو الرأى فيها الى السداد في خطواتهم الاولى

بعد هذا القدر أقول ان المتاعب الحقيقية في الجامعة تبدأ حين يبدأ فيها الطلبة . ان الطلبة يظنون دائما خطأ أن الجامعات كونت لمنفعتهم الخاصة وقد بينت أولا أن أهم اغراضها ترقية العلم

ولا بد من ذكر بعض اعتبارات فيما يختص بالطلبة . يجب ألا تقوم حياة الجامعات على قراءة الكتب المدرسية واستماع المحاضرات بل يجب أن ترمى لغاية اسمى . الجامعة كما يدل اسمها تتضمن التعميم لا من حيث نشر العلم للجميع بلا مراعاة لاختلاف الاجناس والمذاهب بل من حيث تعميم المحبة والشعور بالخير بين طلابها

ان أبناء الجامعة الواحدة مهما تباينت أجناسهم يجب أن يشعروا أنهم أجزاء متضامنة من كلٍّ واحد هو جامعتهم التى تسعى لانيل الغايات فيجب أن يغرسوا روح الوحدة بينهم ويعتنقوا مبدأ التسامح الدينى والجنسى

وهذا هو الواقع فى أكثر الجامعات الانجليزية فى الوقت الحاضر . ففى جامعه ليدز أستطيع ان أقول لكم عن يقين وجزم انه ليس هناك أى تفرقة أو تمييز بين مصرى وانجليزى وهندى

وفى كثير من الاحيان كان الطلبة المصريون يشتركون اشتراكا فعليا فى الحياة الاجتماعية ويأخذون منها بنصيب يكادون ينسون معه

أنهم مصريون . وليس معنى هذا أنهم نسوا بلادهم وأصبحوا أقل وطنية . وغيرة من المصريين الذين لم يذهبوا الى جامعة ليدز فانكم اذا رأيتموهم وهم يتناقشون في الشؤون السياسية لبلادهم رأيتم الوطنية الصادقة والحمية والغيرة

واني في الختام اقول لكم ان المصرى الذى يذهب الى بلاد أجنبية لتلقى العلم يجد نفسه مضطراً للسير في طريق جديد من طرق الحياة والاصطباغ بصبغة أهله والاخذ بأساليبهم في التفكير ويكتسب خبرة يتسع بها مجال فكره

وان مصر ستصبح بعد خمسين عاماً بلادا عظيمة وسيكون السبب في عظمتها أولئك الرجال الذين تلقوا العلم في البلاد الاخرى واضافوا الى ذخرهم الوطنى ذخائر مما اكتسبوا من تلك البلاد